الفصل الأول

مقدمة

صُدِم العديد من المراقبين الغربيين عندما بدأ العرب انتفاضاتهم العلنية ضد حكوماتهم في ديسمبر عام ٢٠١٠. كان الحكم السلطوي قد أصبح هو الواقع لفترة طويلة، لدرجة أنَّ البعض قد اعتبره شكل الحكم المفضل لدى العرب، أو على الأقل هو الواقع المتوقع والمقبول بالنسبة لهم. لقد أقرَّ غريغوري غاوس (بالإنكليزية: Gregory Gause) أنَّ العديد من علماء السياسة كانوا غير مستعدِّين تمامًا لهذه التطورات، في مقالٍ له في مجلة فورين أفيرز (بالإنكليزية: Foreign Affairs) في صيف عام ٢٠١١، بعنوان: «لماذا أخفقت دراسات الشرق الأوسط في توقُّع الربيع العربي»[١]. وقد صرَّحت وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلنتون (بالإنكليزية: Hillary Clinton)، التي يُفتَرَض أنها تتلقى المشورة والنصائح من كبار الخبراء في الأمة، أنَّه: «نحن نواجه صحوة عربية لم يكن أحد يتخيُّلها، ولم يتوقعها إلا قليلون ومنذ سنوات قليلة فقط. وهذه الصحوة تجرِفُ معها الكثير من التصوُّرات القديمة»[٢]. وقد قالت أستاذة السياسة جاكلين ستيفنز (بالإنكليزية: Jacqueline Stevens) نفس الشيء أيضًا ولكن بعبارات أكثر صراحة وخشونة، في مقالتها الافتتاحية لصحيفة نيويورك تايمز في أحد أعداد يونيو عام ٢٠١٢، تحت عنوان[٣]: «علماء السياسة متنبئون سيئون للغاية». وبعد عرضها لفشل علماء السياسة في توقُّع انهيار الاتحاد السوفييتي، وصعود تنظيم القاعدة وتأثيره المُحتمَل، والربيع العربي، خلصت ستيفنز إلى أنَّ «قردة

---

(١) Gregory Gause, "Why Middle East Studies Missed the Arab Spring: The Myth of Authoritarian Stability." *Foreign Affairs* 94:4 (July-August 2011): 81-90.

(٢) *New York Times*, September 18, 2011.

(٣) Political Scientists Are Lousy Forecasters.

الشيمبانزي التي تلقي السهام عشوائيًّا على النتائج المحتملة، ربما كانت ستؤدي كأداء هؤلاء الخبراء تقريبًا»[٤].

وقد اقترح بعض المحللين أنَّ تلك الانتفاضات، العفوية كما يبدو، كانت أثرًا غير متوقَّع لظاهرة «الانفجار الشبابي» (بالإنكليزية: youth bulge) ـ أي: أنَّ أكثر السكان تقل أعمارهم عن ٣٠ عامًا، ولا يجدون فرص عمل، ويكون تعليمهم عادةً أفضل من آبائهم ـ، ولسهولة وصول هؤلاء الشباب إلى الفضاء السَّيبراني العمومي الجديد. إنَّ الدول ذات الأغلبية المسلمة تشترك مع العديد من البلدان النامية في أنَّ غالبية سكانها تقل أعمارهم عن ٣٠ عامًا. هذه الظاهرة، التي تعكس النجاح في الحد من وفيات الرُّضَّع وتحسُّن الرعاية الصحية في الجملة؛ تسبِّبُ ضغوطًا اجتماعية هائلة في البلدان غير القادرة على توفير فرص العمل للشباب الضجر الجامح. إنَّ الشباب العاطل عن العمل في الأنظمة السلطوية يمكن أن يتحوَّل إلى قوة فاعلة، لا سيما في سياق تكنولوجيا وسائل التواصل الاجتماعي الجديدة، المرتبطة عادةً بالأجيال الشابة. لقد سمحت وسائل التواصل الاجتماعي الرقمية بإنشاء مجال عام افتراضي جديد، أتاح للنشطاء تجاوز الحظر الذي فرضته الحكومات السلطوية على حرية التعبير والصحافة والتجمع. وكما بيَّن عمل جون أندرسون (بالإنكليزية: Jon Anderson) وديل إيكلمان (بالإنكليزية: Dale Eickleman)، فإنَّ المجال العام الافتراضي يحيِّدُ التمييز الطبقي والجنسي وحتى الطائفي، مما يتيح إنشاء نوع جديد من النشاط الاجتماعي، لا يحتاج إلى كاريزما قائدٍ ولا إلى طليعةٍ؛ بل إلى أرقام وحسب. وفي العقد الأول من القرن الحادي والعشرين كانت درجة المشاركة في هذا المجال العام الافتراضي تقترب من الوصول إلى الكتلة الحرجة[٥]. وكان كل المطلوب

(٤) *New York Times*, June 23, 2012.

(٥) الكتلة الحرجة critical mass: مصطلح فيزيائي يشير إلى «أقل كتلة من المواد القابلة للانشطار، التي يمكنها أن تُحدِث تفاعلًا نوويًّا متسلسلًا» (معجم الفيزياء الصادر عن مجمع اللغة العربية). وقد انتقل المصطلح من الفيزياء إلى الثقافة الشعبية والعلوم الاجتماعية، ويستخدم على نحو فضفاض للإشارة إلى أي سياق تتغير فيه الأوضاع بعدما يتجمع عدد بعينه من الناس أو عندما يدخلون إلى تجمع ما. وفي سياق دراسة الحركات الاجتماعية، يستخدم المصطلح على نحو استعاري للإشارة إلى جماعة المتظاهرين أو النشطاء التي يكون حجمها كبيرًا للدرجة التي تكفي لإحداث تغيير اجتماعي. (المترجم)

لتحقيق فعاليَّة التنظيم الاجتماعي عبر الإنترنت هو «نقطة تحوُّل» ـ حتى نستعير مصطلح مالكولم غلادويل (بالإنكليزية: Malcolm Gladwell). وربما كان الجانب الوحيد من الربيع العربي الذي لم يكن من الممكن التنبؤ به، هو الحدث الذي لعب دور نقطة التحول هذه. ففي حالة تونس، كان هذا الحدث هو حرق بائع الفاكهة محمد بوعزيزي لنفسه؛ وبالنسبة لمصر، فقد تمثل في مقتل المبرمج خالد سعيد في الإسكندرية. وفي ليبيا واليمن، كان هو ما حدث في تونس ومصر. وفي سوريا، كان هو تعذيب المراهقين في درعا الذين كتبوا على الجدران شعارات مناهضة للنظام والحكومة. وبطريقة أو بأخرى، أصبح الفضاء الاجتماعي السيبراني الجديد وسيلة التنفيس عن مطلب الديمقراطية المكبوت، ولا سيَّما بين الشباب المتعلمين.

وذهب آخرون، على نحو أكثر تقليديَّةً، إلى أنَّ البلدان المسلمة كانت تحاول أخيرًا أن تلحق بسائر بلدان العالم. ففي عام ١٩٩١، وهو العام الذي تفكك فيه الاتحاد السوفييتي، وصف العالم السياسي صموئيل هانتنغتون تاريخ التحوُّلات الديمقراطية منذ الثورتين الأمريكية والفرنسية بأنه سلسلة من «الموجات» الطويلة(٦). فشهدت الموجة الأولى، التي استمرت من ١٨٢٨ إلى ١٩٢٦، تحوُّلًا ديمقراطيًّا في الولايات المتحدة والأرجنتين وشيلي وبريطانيا وفرنسا وسويسرا وإيطاليا وأسبانيا، حيث وسَّعت تلك البلدان المشاركةَ الديمقراطيَّةَ إلى ما وراء النخب التي هيمنت على الحكومات والأنظمة السابقة. لم تكن النتائج مثاليَّة، لكنَّ نصف البالغين من الذكور على الأقل، حصلوا على الحق في المشاركة في انتخابات تنافسيَّة. ووفقًا لإحصاء هانتنغتون، تضمنت هذه الموجة «الطويلة» ثلاثين دولة تقريبًا. ثم أنهت الانقلابات العسكرية وصعود الحكومات الفاشية في أمريكا اللاتينية وأوروبا تلك الموجة، وأدت إلى الحرب العالمية الثانية. ثم أدَّت هزيمة الأنظمة الفاشية في تلك الحرب إلى صعود الموجة الثانية من التحوُّل الديمقراطي. استمرَّت هذه الموجة الثانية من عام ١٩٤٣ إلى عام ١٩٦٢، وشملت استعادة الديمقراطيَّات التي دمَّرتها الفاشية، كما أضافت بضع دول أخرى إلى قائمة الدول الديمقراطية بفضل إنهاء الاستعمار. ولكن بحلول

(٦) Samuel Huntington, *The Third Wave: Democratization in the Late Twentieth Century*. Norman: University of Oklahoma Press, 1991.

أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، عادت الأنظمة السلطوية إلى الصعود مرة أخرى في أمريكا اللاتينية وآسيا واليونان والبرتغال. فقد حلَّ محلَّ جمهورية البرتغال الديمقراطية، على سبيل المثال، دولة إستادو نوڤو[٧] عام ١٩٣٣. ثم أطيح بهذا النظام القمعي البغيض، في الانقلاب العسكري غير العنيف الذي أيده الشعب في عام ١٩٧٤ (وقد عُرِف باسم «ثورة القرنفل» (بالإنكليزية: Carnation Revolution)؛ لأن أنصاره ملأوا الشوارع ووضعوا أزهار القرنفل الحمراء في فوَّهات بنادق الجنود). ومثَّل هذا التحوُّل بداية الموجة الثالثة من التحوُّل الديمقراطي عند هانتنغتون، التي شملت دولًا من أمريكا الجنوبية والاتحاد السوڤييتي السابق وأوروبا وأفريقيا. ضمَّت هذه الموجةُ، في الجملة، حركاتٍ شعبيَّةٍ غير عنيفة، وكانت مدفوعة بمجموعة من العوامل، من بينها الفشل الاقتصادي والعسكري، وزيادة التمدُّن، وارتفاع مستويات التعليم، وما ترتَّب على ذلك من ارتفاع في رغبات الناس في الحرية، وفي قدرتهم على التعبير عن تلك الرغبات. إنَّ احتجاجات الربيع العربي الشعبية الواسعة، والتي أسقطت بعض الأنظمة السلطوية الراسخة في العالم العربي، دفعت البعض للتحدث عن «موجة رابعة من التحوُّل الديمقراطي»[٨].

---

(٧) إستادو نوڤو Estado Novo: كلمة برتغالية، معناها: الدولة الجديدة، وكانت تُسمَّى أيضًا بالجمهورية الثانية، وهو نظام حكم سلطوي تأسس بعد الانقلاب العسكري الذي وقع عام ١٩٢٦، على الجمهورية الأولى، التي سُمِّيت جمهورية البرتغال الديمقراطية. (المترجم)

(٨) انظر على سبيل المثال:

Stephen R. Grand, "Starting in Egypt: The Fourth Wave of Democratization?" *Brookings Opinion*, February 10, 2011. www.brookings.edu/research/opinions/2011/02/10-egypt-democracy-grand. Accessed June 2, 2012.

وأيضًا، في المظاهرات الضخمة التي كانت مميزة للثورات، شارك عدد كبير من الناس في أنواع جديدة من النشاط السياسي في المجال العام. وعند بعضهم، أصبح الربيع العربي «ثورة الفيسبوك»، ونسبوا نجاحه إلى قوة وسائل التواصل الاجتماعي المعاصرة في خلق مجال عام جديد. «ومع ذلك، فإن القليل من هذه التعبئة التشاركية من طرف المجتمع المدني قد بدا موصولًا على نحو فعال بالبنى الرسمية والعمليات المؤسسية». انظر:

Seyla Benhabib et al., *The Democratic Disconnect: Citizenship and Accountability in the Transatlantic Community*. Washington, DC: Transatlantic Academy, 2013, p. vii.

وكانت النتيجة أنَّ العديد من المتظاهرين لم ينظموا صفوفهم بفعالية، في العمليات الانتخابية الرئيسية، وشعروا أنهم قد خُدِعوا عندما خسروا الانتخابات. ورأى بعضهم أن هذا يمثِّل ضعفًا في الديمقراطية (أنها تؤدي إلى سيطرة الأغلبية)، فأصبحوا مستعدين لتقبل البدائل غير الديمقراطية.

ولكن بحلول صيف عام ٢٠١٣، أصبح من الواضح أن انتفاضات الربيع العربي قد فشلت في إنتاج الديمقراطية إلا في المنطقة التي بدأت منها؛ أي: في تونس. فقد أطيح بأول حكومة ديمقراطية في مصر في انقلاب عسكري كان بدعم من الشعب في الظاهر. وانزلقت سوريا إلى حرب أهلية وحشية وطويلة الأمد، أدت إلى عودة الولايات المتحدة والقوى الأوروبية الأخرى، حتى لحظة كتابة هذه السطور، إلى الصراع في الشرق الأوسط مع القوى الإقليمية الأخرى. كما انقسمت ليبيا؛ وأصبح فيها حكومتان منتخبتان تتبادلان العداء، واحدة في طرابلس والأخرى في طبرق، بينما تسيطر الميليشيات المختلفة على قطاعات مختلفة من البلاد.

إنَّ هذه التطورات تكشفُ، بدايةً، عن عدم وجود تحوُّلٍ حتميٍّ من الانتفاضة الشعبية ـ سواءٌ أكان ذلك من خلال الانفجار الشبابي ووسائل التواصل الاجتماعي أم لم يكن ـ إلى حركةٍ اجتماعيَّةٍ أو سياسيَّةٍ مستدامة. فلكي تصبح الانتفاضات حركة مستدامة، كما يقول سيدني تارو (بالإنكليزية: Sidney Tarrow)، لا بد من عدد من الشروط المسبقة، من بينها انتشار الشبكات الاجتماعية، والأشكال المألوفة من العمل الجماعي، والأطر الثقافية المشتركة على نحو واسع بين السكان، والفرص السياسية. وكما تبيِّن عودة السيطرة العسكرية في مصر وسوريا، فإنَّ الفرصة السياسية لم تكن متوفرة على أي حال. وفي ليبيا، من المشكوك فيه ما إذا كانت أي من عناصر الحركة الاجتماعية التي يتحدث عنها تارو موجودة أم لا. وعلى أي حال، فإنَّ أعدادًا كبيرة من الشباب أنفسهم قد شاركوا في المظاهرات ضد الرئيس المصري المنتخب محمد مرسي، وكذلك في المظاهرات التي أيدته، وكذلك في الميليشيات المختلفة في سوريا وليبيا. وتشير استطلاعات الرأي التي أجرتها مؤسسة بيو (بالإنكليزية: Pew) في عام ٢٠١٢، إلى أنَّ ما يقرب من ثلثي المصريين يفضِّلون نموذج الحكم السعودي، على النموذج العلماني التركي[٩]. وكما توحي قائمة التسجيلات المصوَّرة التي نشرتها الدولة الإسلامية (داعش)، فإن الشباب البارعين تكنولوجيًّا ليسوا جميعهم من مؤيدي الديمقراطية[١٠].

---

(٩) http://www.pewglobal.org/2012/05/08/egyptians-remain-optimistic-embrace-democracy-and-religion-in-political-life/. Accessed September 23, 2014.

(١٠) يشير المؤلف إلى الجودة والاحترافية الكبيرة الواضحة في إخراج التسجيلات المصوَّرة التي ينشرها التنظيم. (المترجم)

ولكن ماذا عن فرضية «الموجة الرابعة»؟ هل كانت متفائلة أكثر من اللازم؟ هل الفشل العام الذي منيت به انتفاضات الربيع العربي دليلٌ على أنَّ فرضية «الموجة الرابعة» كانت سيئة التأسيس؟ كما يشير أحمد كورو (بالتركية: Ahmet T. Kuru)، فإنَّ الإغراء قويٌّ في أعقاب الفشل الظاهر للربيع العربي لإعادة إحياء فرضية أنَّه لن توجد «موجة ديمقراطية» في البلدان ذات الأغلبية المسلمة؛ لأنَّ الإسلام هو العقبة المنيعة حقًّا على طريق التحوُّل الديمقراطي[١١]. هذه الفرضية ترتبط بصموئيل هانتنغتون نفسه، الذي جاء بنظرية موجات التحول الديمقراطي والذي ادَّعى أيضًا أنَّ الدول الإسلامية لن تشهد موجتها الخاصة، بسبب التناقضات العميقة بين الإسلام والديمقراطية. وفي عام ١٩٩٦، تناول جون إسبوزيتو (بالإنكليزية: John L. Esposito) وجون ڤول (بالإنكليزية: John O. Voll) هذه القضايا في كتاب: الإسلام والديمقراطية[١٢]. وبيَّن المؤلفان، استنادًا إلى ستٍّ من دراسات الحالة ـ وهي الجزائر ومصر وإيران وماليزيا وباكستان والسودان ـ، أنَّ الإسلام والحكم الديمقراطي بعيدان كل البعد عن أن يكونا غير متوافقين، لكنَّ التجارب والخبرات الاجتماعية والثقافية والتاريخية المختلفة ينتج عنها مسالك متنوِّعة إلى مسألة التحوُّل الديمقراطي وعلاقته بالأيديولوجيات الإسلامية. وفي ضوء انتفاضات الربيع العربي وإخفاقاتها الظاهرة، سوف نعيد النظر في سؤال المسالك الإسلامية إلى الديمقراطية. وفي دراسات الحالة التي أوردناها ـ وهي تتضمن دولًا عربية وغير عربية من البلدان ذات الأغلبية المسلمة ـ، سوف نتتبع مسار النضال من أجل الحكم الرشيد. وسوف نبحث في الحالة الراهنة لجهود التحوُّل الديمقراطي في الدول محلِّ الدراسة، مع الانتباه إلى العوامل المؤثرة، كأثر الاستعمار، والحرب الباردة، والتغيُّرات الديموغرافية. وسوف نُقِيم الحجة على أنَّ ثورات الربيع العربي ليست سوى أحدث التطوُّرات في النضال ـ المستمر منذ أكثر من قرن ـ من أجل الحكم الرشيد والسيادة الشعبية، في البلدان ذات الأغلبية المسلمة. وأنَّها جميعًا كانت مدفوعة بمظالم راسخة قد حرّكتها ضد

(١١) Ahmet T. Kuru, "Authoritarianism and Democracy in Muslim Countries: reinter States and Regional Diffusion." *Political Science Quarterly* 129 (November 3, 2014): 399 - 427.

(١٢) Islam and Democracy (Oxford University Press).

الحكومات السلطوية، الاستعمارية وما بعد الاستعمارية على السواء. لم تفجأ تلك الثورات إلا مَنْ نظر، لجهله بذلك التاريخ، إلى حكومات ما بعد الاستقلال غير الديمقراطية في البلدان العربية، ورأى مُعمِّمًا أنها تمثِّل الشكل المُفضَّل، وربما الضروري، للحكم عند العرب، أو حتى عند المسلمين بأسرهم. وكما قال زياد العليمي، أحد قادة الانتفاضات المصرية في عام ٢٠١١: «لقد بدأت الثورة المصرية قبل عام ٢٠١١ بزمن طويل، وسوف تستمر لفترة طويلة بعده»[١٣]. والأمر نفسه يصدق على جهود التحوُّل الديمقراطي في البلدان الأخرى ذات الأغلبية المسلمة. وبالتالي، فعلى الرغم من أن الربيع العربي لم يؤد ـ على طريقة قطع الدومينو المتساقطة ـ إلى وضع حدٍّ للسلطوية في البلدان ذات الأغلبية المسلمة، إلا أننا سنحاجج عن أنَّ التحول الديمقراطي لم يبدأ مع الربيع العربي وأنه على الأرجح، وبناءً على تاريخه، سوف يستمر طويلًا بعد «شتائه».

نظرية التحديث، وهانتنغتون، ومشكلة النظر إلى «الدين» باعتباره العامل المؤثر

من ضمن الأسباب التي جعلت الربيع العربي يفاجئ المحللين الغربيين هو هيمنة نظرية التحديث، ولازمتها؛ فرضية العلمنة. فنظرية التحديث، التي ترجع جذورها إلى رائد علم الاجتماع الألماني ماكس ڤيبر (بالألمانية: Max Weber) (ت. ١٩٢٠)، ووصفه للعالم الحديث بأنه «حسابي» أو عقلاني، تتنبأ بأنَّه على قدر ما تتحول المجتمعات إلى التصنيع، وتتمدن، وتتطور تكنولوجيًّا؛ على قدر ما ستتراجع فيها جاذبية الدين بكل ما فيه من غموض وأسرار، ورضا بالقدر؛ أي: أنَّ المجتمع سوف «يتعلمن». وكما حدث في أوروبا، سيتعرَّض الدين الممأسس إلى الإقصاء من الشؤون الاقتصادية والسياسية؛ وسوف يقتصر الدين على الأمور الشخصية.

إنَّ خصخصة الدين ـ أي: «العلمنة» ـ[١٤] كانت نتيجة لعملية التحوُّل

---

(١٣) Paraphrased by Robert F. Worth, "The Pillars of Arab Despotism." *New York Review of Books*, October 9, 2014. https://www.nybooks.com/articles/2014/10/09/pillars-arab-despotism/. Accessed September 23, 2014.

(١٤) خصخصة الدين هي واحدة من ثلاث دلالات لمصطلح العلمنة وفقًا لخوسيه كازانوفا: =